

## صورة الجزائر إبان الاحتلال من خلال كتابات الرحال الألماني موريتس فاغنر

د. محمد حمودي

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم/ الجزائر

قصد الجزائر في القرن التاسع عشر كثير من الرحالة الأجانب، على اختلاف مشاربهم وتعدد جنسياتهم، فـ"سجلوا ما وقع تحت أعينهم وما لفت أنظارهم وما أثار انطباعاتهم فوصفوا البلاد وصوروا العباد وتفانوا في جمع المعلومات الجغرافية والتاريخية والحضارية"<sup>(1)</sup>. كما سردوا تجاربهم الشخصية أثناء تنقلاتهم بين المدن والقرى الجزائرية، واصفين علاقتهم مع سكانها، وراصدين عاداتهم وتقاليدهم، ومعبرين عن مواقفهم السياسية من الاحتلال، ورفض الأهالي له.

ومن هؤلاء الرحالة، بعض الكتاب والشعراء الألمان، ممن عُنوا بتاريخ الجزائر في فترة من فتراتهما وكتبوا عنها. وتعدّ كتاباتهم هذه بمثابة وثائق مهمة ومصادر مساعدة، تساهم في تدوين تاريخنا، من حيث كونها شهادات عايش أصحابها الأحداث أو شاهدها عن قرب. وموريتس فاغنر أحد هؤلاء الذين زاروا الجزائر في الفترة ما بين 1835م و1838م، وقد ألّف كتابا حولها في ثلاثة أجزاء صدر في لايبتيغ عام 1941م سمّاه: "رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836م، 1837م، 1838م"، اعتمد في نقل الأخبار والأحداث التاريخية على مصادر متنوعة، فاستفاد من رحلات الرحال الإنجليزي "توماسشو" والفرنسي "بيصونيل"، مشيرا إلى أنهما اهتمتا بالآثار وأغفلا الجانب الإنساني، ومؤكدا في ذات الوقت على

قلة المصادر التي تناولت الجزائر، وإن وجدت فهي تقتصر على الناحية السياسية أو الاستعمارية، ويفضل من بينها "الحواليات الجزائرية" لبيليسي.<sup>(2)</sup>

لقد تناول فاغنر في الجزء الأول من كتابه مدينة الجزائر وبعض المدن التي شاهدها، وأمّا الجزء الثاني فتعرض فيه إلى المجموعة الحيوانية في الجزائر، وهذا بمعية أخيه رودولف، وأمّا الجزء الثالث فخصه لتاريخ الاحتلال والمعارك التي حضرها.

على أن الذي يعنينا هنا، الجزء الخاص بأحداث الاحتلال الفرنسي الغاشم، وإن كانت الأخبار التي أوردها فاغنر تبعث بعض الشك، ذلك أنه اعتمد في أحايين كثيرة على كتاب الجنرال الفرنسي بيليسي السالف الذكر. كما أن كتاباته تتسم بالتعصب للعرق الأوروبي، ونستجلي ذلك من خلال الكلمة التي بعث بها إلى دوق أورليانس لويس فيليب، حين أهدها كتابه إليه، حيث افتخر بمشاركة بلاده في تأسيس المستعمرات الأوروبية في الشمال الأفريقي، وتعاوض الجنود الألمان مع الجنود الفرنسيين، وتكاتف الفلاحين والعلماء الألمان مع نظرائهم الفرنسيين، سعياً منهم، كل في مجاله الخاص إلى استكشاف تاريخ إفريقيا قديماً، وهذا كله بغية تحضير الإنسان الجزائري وتنويره، وتحرير الأراضي الجزائرية.<sup>(3)</sup> ولعمري هذا فيه شيء كثير من الطرافة والعجب. وتنبدى النزعة العنصرية جلية لدى فاغنر، في إقراره بأن فرنسا جاءت إلى الجزائر لتعليم سكانها بأن وظيفة الإنسان لا تتمثل في محاربة الإنسان لأخيه الإنسان، وتمزيق لحمه، وإهمال أراضيه الخصبة المعطاء.<sup>(4)</sup>

وإذن، فموقف الألمان من الاحتلال الفرنسي موقف المؤيد الذي تسكنه العنصرية الحقيرة والعنجهية المتسلطة، ومن ثم نلفيهم لم يبتوا في إظهار العداء الصارخ للجزائر وأهلها، فلقد كانت بالنسبة إليهم لا أكثر من مهجر جديد، يفتح للعنصر الألماني أبواب العيش في دعة وأريحية. ولقد صرح أحد الألمان الذين قصدوا الجزائر، وهو فرديناند فنكلمان بذلك، إذ اعتبر الجزائر بالنسبة له مستعمرة رائعة، والألماني فيها أكثر كرامة وأوفر عزة من الجزائري، لأن فرنسا تحمي الألماني كما تحمي غيره من الأوروبيين، ولا تسمح للجزائري بأي نوع من التحدي

والمقاومة.<sup>(5)</sup> بالرغم من أن الجزائري، وفي تلك الظروف، عاملهم معاملة الإحسان كما أوصى الإسلام. فالأمير عبد القادر هو ورجاله ساعد فاغرن أثناء زيارته لمناطق عربية مستقلة، وسهل عليه أداء مهامه، ومع هذا نلفيه يقرر أحكاما عامة وقاسية رجما بالغيب. فالعرب جميعهم حسب زعمه يرون في كل أوروبي جاسوسا لفرنسا، والجزائريون لا يتقون في أحد، ومن ثم فعلى كل إنسان أن يحذر منهم.

ومن أخطر ممارسات الاحتلال الفظيعة التي أبانت عن حقه وشراسته ووحشيته ولا إنسانيته والتي ذكرها فاغرن، هي إقباله على هدم المساجد بغرض توسيع الشوارع أو لإقامة بنايات جديدة مكانها، فقد تحولت بعض المساجد إلى مسارح وأخرى إلى مخازن للتبن وثالثة إلى ثكنة. ويعلق فاغرن على ذلك: "هكذا اعتدت فرنسا على حرمان المسلمين، وذلك ما لن يغفره لها الجزائريون ولن ينسوه أبدا!".<sup>(6)</sup> ولم تسلم أيضا أسواق الجزائريين من بطش المحتلين، فقد قضا على كل الأسواق الجميلة وأقاموا بدلها دكاكين ومخازن أوروبية.

لقد بلغت الدناءة بالمحتل إلى تماديه في انتهاك حرمان الجزائريين، حيث تعدى على حرمة القبور والأضرحة، وتجراً على فتحها بداعي البحث عن الأموال، ثم نقل حجارتها إلى أماكن أخرى. والأفطع من ذلك أن الفرنسيين المدعيين التحضر والمدنية بلغ بهم الأمر إلى نقل عظام الموتى وحملها على السفن إلى بلدهم لبيعها لمعامل مسحوق العظام، وتقع المسؤولية حسب فاغرن.

على عاتق روفيقو، الذي دفعه حنقه على المسلمين إلى جرح مشاعرهم العقائدية، وكل هذا غصبا وعنوة، ولم يجد الأهالي بدا من الاحتجاج على هدم قبور نويهم، فعاشوا الأحداث واجمين يسكنهم الحزن ويقطعهم اليأس.<sup>(7)</sup> وعلى حد قول فاغرن أن جل من كتبوا عن الجزائر احتجوا على هذه الأعمال الوحشية التي مسّت قداسة الأجداد.

ثمّة وقائع عسكرية توقف عندها موريتس فاغرن، وهي تلك الأحداث التي جرت في الغرب الجزائري، وحسب أبو العيد دودو أنه استقاها من حوليات بيليسي. والملاحظ أن ما اجترحه الفرنسيون من جرائم لم يرق لفاغرن ولا لغيره،

بل إنه تعجب من صنيعهم، وكيف جاز لهم التعدي على قداسة الآثار القديمة، وقطع الأشجار، فرأى أن حرب الفرنسيين هي ضد الأحياء والأموات، وسخرية من تراب الأجداد وأكثر من ذلك هي سخرية من المجد والتاريخ والعلم. ولعل غضبه من إبادات المحتل جعلته يتمنى أن ينهدّ الجبل الراسخ مرة أخرى ويقضي على الطغاة، كما حدث في وقت مضى. ويؤكد أن أعمال الفرنسيين الإجرامية هذه لم يقمها لا الفندال ولا الشرقيين، فهم على الأقل لم يخربوا ولم يهدموا الآثار القديمة احتراماً منهم للديانات الأخرى. على أن فاغنر سجل موقفاً إيجابياً آخر، فضلاً عن ما أبداه فيما سبق من رفض وتذمر من الفرنسيين أعداء الحضارة والدين إذ شكّا إلى قائد الجيش الفرنسي **دوفيقي**، بيد أن هذا الأخير لم يزد حسب **فاغنر** أن مسح على لحيته بيده، وراح يشكو بدوره من رغبة الجنود في الهدم وعدم طاعتهم، نتيجة عدم تكيفهم مع صعوبة الحياة في الجزائر وظروف الحرب، ومن ثم فهو لا يرى حلاً لهذه المشكلة.

ويبرر **فاغنر** موقف **دوفيقي** من جنوده إلى انتظاره ترقية من وزارة الحربية.<sup>(8)</sup>

ومن صور الاحتلال التدميرية واللاإنسانية التي نقلها **فاغنر** أيضاً، الحملة الشعواء التي شنّها على مدينة قسنطينة، وقد وصفها بشكل تفصيلي ودقيق، ونشر ذلك في إحدى الجرائد الألمانية سنة 1837م. فوصف الشخصيات العسكرية الفرنسية المختلفة، وكذا من خانوا الوطن والتفوا حول معسكر الاحتلال، من أمثال **ابن زكري** و**الحاج سليمان**.

ومن وقائع الاحتلال الحربية التي رصدها **فاغنر**، حملة قسنطينة، التي شارك فيها بنفسه على ضمن أعضاء البعثة العلمية، حيث ضرب جنود المحتل المعسكر في المنصورة وأطلقوا نيران المدفعية على المدينة، وحدثت اشتباكات بين الخيالة، ثم الهجوم عليها من جهة الكدية. وكان القائد **دامريمون** يظن أن أهل المدينة سيتسلمون ويخرجون طالبين الصلح، ولكنه فوجئ بصمودهم واستماتهم. وكان ردهم للقادة الفرنسيين عبر مرسلهم: "إن في قسنطينة كثيراً من المؤمن

والذخائر، وإذا كان الفرنسيون في حاجة إلى شيء منها فإن في استطاعتنا أن نزودهم بما يريدون! أما الاستسلام فإننا لا نعرف معناه وسنصمد في الدفاع عن مدينتنا ودورنا. إنها لن تسقط في أيديكم ما دام مدافع حيا يرزق!"<sup>(9)</sup>. وبناء على هذا الرد أعلن دامريمون الحرب، فدافع الأهالي على مدينتهم ما أمكنهم وقتلوا من عسكر العدو ما استطاعوا، غير إنه غلب على أمرهم ففر بعضهم إلى الجبال ومات البعض الآخر وأسلحتهم في أيديهم. ونهبت المدينة لمدة ثلاثة أيام متعاقبة، وباع الفرنسيون ما غنموه من زرابي وبرانس وأسلحة ومواد غذائية وكتب عربية إلى بعض اليهود. وخلفت هذه المعركة خمسمائة شهيد جزائري. ويقول فاغنر أنه التقى عند الثغرة بالنقيب لوفيان فسأله: "كيف دافع القسنطينيون عن أنفسهم؟" فأجابه: "كالشياطين لحما ودما!"<sup>(10)</sup>

ومما أدانه فاغنر حسب زعمه العبث الذي مارسه الجنود الفرنسيين على تراث مدينة قسنطينة المادي والمعرفي، حيث أضاعوا الكثير من الكتب والمخطوطات مثل "كتاب القضاة" و"تاريخ مدينة قسنطينة"، وبالأخص وهم في طريقهم إلى عنابة، ذلك أن الجنود لم يقدروا قيمتها.<sup>(11)</sup>

هذا ما ذكره فاغنر من أحداث وصور للاحتلال الفرنسي للجزائر، وبعض العادات والتقاليد الجزائرية، وما اتسم به الجزائريون من حسن الأخلاق والشجاعة والإباء والأنفة. على أنه أفرد في الجزء الثالث من كتابه ترجمات لكل من الأمير عبد القادر وأحمد باي وفرحات بن سعيد وبوعزيز بن قانة ومصطفى بن إسماعيل ومحمد بن عيسى البركاني والميلود بن عراش...

ويبقى في الأخير أن نشير إلى أن ما كتبه الألمان عن الجزائر كما يقول أبو العيد دودو: "ليس حبا بها، ودفاعا عن حقوقها، وإنما وضعوا أكثرها، ولاسيما في الفترة الأولى، لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة إلى الجزائر لإنشاء المستعمرات والإقامة بها إقامة دائمة تحت ظل الاحتلال الأجنبي وحماية حكومته! ولا يمكننا بطبيعة الحال أن ننتظر منهم غير هذا الذي فعلوه. فقد كانت مصالحهم

مرتبطة بمصالح الغزاة سواء بحكم رغبتهم في الانضمام إلى الفرقة الأجنبية أو بحكم نية الهجرة إلى المستعمرة الجديدة الرائعة".<sup>(12)</sup>

**الهوامش:**

- 1- مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص9.
- 2- ينظر: أبو العيد دودو، دراسات أدبية مقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص71، 72.
- 3- نفسه، ص75.
- 4- نفسه، 75-76.
- 5- نفسه، ص76.
- 6- ينظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحّالين الألمان (1830 - 1855) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص81-82.
- 7- نفسه، ص84-85.
- 8- نفسه، ص86.
- 9- نفسه، ص87.
- 10- نفسه، ص88.
- 11- نفسه، ص89.
- 12- نفسه، ص7-8.